قَـتَـلْـنَـا مِـنْـهُـمُ مـائـتَـيـنِ حُـرّاً،
وَأَلْـفـاً فـي الـشِّـعـابِ وَفـي الـهِـضَـابِ[١]

هجرتك فامضي

كانت عبلة قد أسمعته يوماً كلاماً يكرهه، فخرج عنها غضبان، وقال في ذلك:

[الطويل]

سَـلا الـقـلـبُ عَـمّـا كـان يَـهْـوَى وَيـطـلـبُ
وَأصْـبَـحَ لا يَـشْـكـو وَلا يَـتَـعَـتَّـبُ[٢]
صَـحـا بـعـدَ سُـكْـرٍ وَانـتَـحـى بـعـدَ ذِلّـةٍ
وَقـلـبُ الـذي يـهـوَى الـعُـلا يَـتَـقَـلّـبُ[٣]
إلـى كَـمْ أُدارِي مَـنْ تُـرِيـدُ مَـذَلّـتـي
وَأبـذُلُ جـهـدي فـي رِضَـاهـا وَتـغـضَـبُ؟[٤]

(١) يصف الشاعر ما أسفرت عليه المعركة؛ فقد انكشفت المأساة عن صرعى تناثرت أجسادها في كل الشعاب والهضاب والعدد كثير.

(٢) يبدأ الشاعر بمطلع وجدانيّ، لغته لغة القلوب، لغة الحبّ والعِتاب فعزاء القلب المجروح الابتعاد عمّا يجرحه، والنسيان باب واسع يودي بصاحبه إلى رحاب راحة البال والبعد عن الشكوى والعتاب، فالقلب تغمره مسحة حزن أليم.

(٣)، (٤) يتمتّع الشاعر بإرادة صلبة ورصانة عقل، شعوراً بكرامة لا تقبل بالذّل والمهانة فإذا كان في القلب هموم تعلو به نحو العلاء سرعان ما ينسى ما يُعتبر نقصاً بالرجولة الحقّة التي من أجلها يحيا المرء، لذا فإنه يدوس على مشاعر عابرة، فالمداراة لها حدود لا تقبل النفس الكريمة الانحدار بها إلى مهاوٍ في سبيل رضى من تنفر وتفتعل غضباً مزيّفاً كاذباً.

عُـبَـيـلـةُ! أيّـامُ الـجَـمـالِ قَـلـيـلَـةٌ
لـهـا دَوْلَـةٌ مَـعْـلُـومَـةٌ، ثـمّ تَـذْهَـبُ[١]

فـلا تَـحْـسـبـي أنـي عـلـى الـبُـعْـدِ نـادِمٌ
وَلا الـقَـلـبُ فـي نـارِ الـغَـرَامِ مُـعـذَّبُ[٢]

وَقـدْ قـلـتُ: إنـي قـد سَـلـوْتُ عـنِ الـهـوَى
وَمـن كـان مـثْـلـي لا يَـقـولُ وَيـكـذبُ[٣]

هـجـرْتُـكِ فـامـضـي حـيـثُ شـئـتِ وَجـرّبـي
مِـنَ الـنّـاسِ غَـيـرِي فـالـلّـبـيـبُ يُـجـرِّبُ[٤]

لـقـد ذَلّ مَـنْ أمـسـى عـلـى رَبْـعِ مـنْـزِلٍ
يَـنُـوحُ عـلـى رَسْـمِ الـدّيـارِ وَيَـنْـدُبُ[٥]

---

(١) يخاطب الشاعر محبوبته متودّداً بقوله لها عُبيلة، كاشفاً حقيقة إنسانية قد يغفل عنها الإنسان في وقت من الأوقات أن الجمال زائل مع مرور الزمن، وتبقى بعد ذلك الحسرات والدموع على فرص لم تستغلّ.

(٢) يتمتّع الشاعر بالعنفوان الرجولي الذي لم يُوجد عند الشعراء الذين كانوا يتذلّلون لمحبوباتهم، وليس الشاعر نادماً لعدم صلته بمحبوبته وكذلك لا يغمر قلبه عذاب أليم لطالما شعر به المعذّبون بالحبّ.

(٣) إن الشاعر ينطق بتجربة من لا يُؤثّر به ألم عابر، فهو صادق في قوله: «إني قد سلوت عن الهوى».

(٤) ثورة الكبرياء والشعور بالكرامة لذا كان منه الردّ الطبيعي عدم الاكتراث لما كان منها أن هجرها، وعليها أن تجد من يملأ الفراغ الذي أحدثه في حياتها، فلتجرّب غيره ولتحكم بعد ذلك حكم عاقل لبيب، إن وجدت أفضل منه.

(٥) إنه موقف نقدي لحالة وجدانية؛ فهؤلاء الشعراء كان من عادتهم البكاء على الأطلال ومن سكنها، فهم مسخهم الحبّ وذلّلهم، فإذا بهم يعومون في خضم الذلّ ولا يصلون إلى شاطئ الأمان.

وَقد فازَ مَنْ في الحَرْبِ أصْبحَ جائلاً
يُطَاعِنُ قِرْناً وَالغُبَارُ مُطَنِّبُ[١]
نَديمي! رَعاكَ اللَّهُ قُمْ غَنِّ لي عَلى
كُؤوسِ المَنايا من دمٍ حينَ أشرَبُ[٢]
وَلا تَسْقِني كَأسَ المُدامِ فإنّها
يَضِلُّ بها عَقْلُ الشّجاعِ وَيَذْهبُ[٣]

أحنّ إلى ضرب السيوف

[الطويل]

أحِنّ إلى ضَرْبِ السّيوفِ القَواضِبِ
وَأصْبو إلى طَعْنِ الرّماحِ اللّوَاعبِ[٤]
وَأشتاقُ كاساتِ المَنونِ إذا صَفَتْ
وَدارَتْ على رَأسي سهامُ المَصَائبِ[٥]

(١) الرابح هو من قاتل وجال في ساحة الوغى وصرع الأقران في حومة الميدان والغبار يتصاعد حاجباً المتقاتلين، لا من بكى واستبكى.
(٢)، (٣) يخاطب الشاعر من يُشاركه الحديث أن يُغني له في حفل الموت وحيث تتوالى الكؤوس، إنها ليست كؤوس الخمر، ولكنّها كؤوس الدم. كؤوس الانتصار والبطولة؛ وذاك مدعاة فرحة عنترة. أما المدام فالشاعر منها براء، فهي مضيعة للعقل والرجولة الحقّة والشجاعة.
(٤) السيوف القواضب: القاطعة البتّارة. حنين جارف وشوق لا حدودَ له إلى تلك السيوف البتّارة يستعملها عنترة في ميادين الفرحة والانتصار على الأبطال، وإلى رماح تخترق الأجساد وتتلاعب بالأكباد، فتسيل الدماء.
(٥) وثمة شوق لدى الشاعر لشراب طعمه طعم الشؤم والموت في ساحة المعركة، إنها كاسات تدور ويتهاداها الأبطال في وسْط الزحام حيث تنزل الويلات على من قُدّر له موت زُعاف وويلات عِظام.